الموسم

مجلة فصلية مُصوّرة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 12) – 1991 – 1412

الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمّد سعيد الطريحي

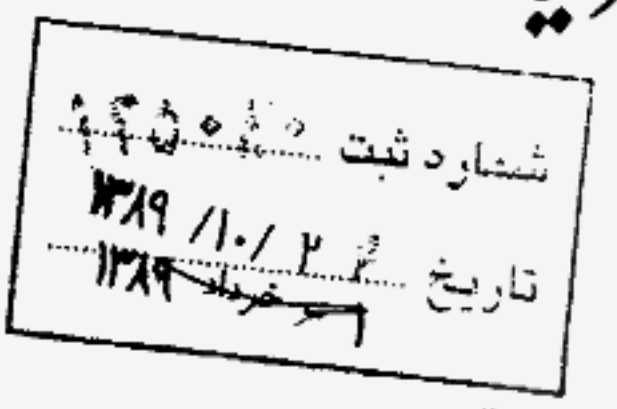

شماره ثبت ......
تاريخ ١٣٨٩

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND

Shiabooks.net

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

فلسفة الثورة الحسينية

«نظرية الشهيد الصدر في تفسير الفعل الحسيني»

● محمد الحسيني (*)

البيانات والوثائق السياسية لثورة سيد الشهداء الحسين بن علي(ع) ، أوحت الى الباحثين والمفكرين بتفسيرين مختلفين ، بل ومتناقضين الى حد ما ، سواء في الهدف الذي انتفض من أجل تحقيقه الامام الحسين(ع) ، أم في تفسير المفارقة في الموقف الحسيني والموقف الحسني . فمن أجل ماذا فجّر الحسين(ع) ثورته ، ولماذا اختار طريق الدم والثورة ، طريق العنف والقوة ، طريق الاستشهاد والقطيعة التامة مع الحكم الأموي آنذاك ، فيما اختار أخوه الامام الزكي الحسن بن علي(ع) طريق الصلح والموادعة ، بدلاً عن طريق العنف والقوة واللجوء الى السلاح ؟!

لقد خاض العلماء والباحثون كثيراً في التنقيب عن السبب الرئيس وراء اختلاف الموقفين ـ أعني الموقف الحسيني والحسني ـ وعن الهدف الذي كان الامام الحسين(ع) يروم تحقيقه في لجوئه الى الخيار الثوري .

ويأتي البحث في فقرتين ، أولهما في هدف الثورة الحسينية ، وثانيهما في ما يسمى بالظاهرة الحسنية ، والظاهرة الحسينية . وهو بحث يعكس وجهة نظر الامام والمفكر الاسلامي الشهيد محمد باقر الصدر ، ونظريته في تفسير الفعل الحسيني ، وتحليل الظاهرتين الحسينية والحسنية .

[١] : هدف الثورة الحسينية :

يظهر ـ من حيث المبدأ ـ موقفان وتفسيران مختلفان ومتباينان الى حد ما بخصوص الهدف الذي من أجله فجّر سيد الشهداء الحسين(ع) ثورته ، أحدهما : يعتقد أن الامام الحسين(ع) كان يهدف في لجوئه الى الخيار الثوري قلب الحكم الأموي وإقامة الحكم الاسلامي الأصيل . وثانيهما : يذهب الى أن الامام الحسين(ع) إنما فجّر ثورته المدوّية في كربلاء بقصد التضحية والاستشهاد ، لإحياء الدين الاسلامي . وهما موقفان قديمان حاول بعض المتأخرين تعميقهما .

السيد الشهيد محمد باقر الصدر له في تفسير الفعل الحسيني نظرية خاصة تجيء اكثر انسجاماً مع الواقع التاريخي والفكر الاسلامي ، وهي نظرية تقوم على الجمع بين التفسيرين أو الموقفين المتقدمين ، جمعاً واعياً ومترابطاً الى حد كبير . وتمهيداً لعرض نظريته في تفسير وفلسفة الثورة الحسينية نستعرض الموقفين المتقدمين .

الموقف الاول :

ولعل أبرز انصاره هو علم الهدى السيد المرتضى ، فقد ذكر في كتابه «تنزيه الأنبياء والأئمة» ما حاصله[1] : ان الحسين(ع) غلب

* باحث عراقي من مواليد النجف ١٩٦٣ صدر له . الامام الشهيد محمد باقرالصدر وكتاب مقاتل الأموبين .

على ظنه بمقتضى ما جرى من الأمور أنه يصل الى حقه بالمسير ، فوجب عليه ، وذلك بمكاتبة وجوه أهل الكوفة وأشرافها وقرائها، مع تقدم ذلك منهم في أيام الحسن وبعد وفاته وإعطائهم العهود والمواثيق طائعين ، مبتدئين مكررين للطلب ، مع تسلطهم على واليهم في ذلك الوقت وقوتهم عليه وضعفه عنهم ، وقد جرى الأمر في أوله على ما ظنّه ، ولاحت أسباب الظفر ، فبايع مسلماً أكثر أهل الكوفة ، وكتب الى الحسين بذلك ، وتمكن مسلم من قتل ابن زياد غيلة في دار هاني ، لكنه لم يفعل معتذراً بأن الاسلام قيد الفتك ، ولما حبس ابن زياد هانئاً حصره مسلم في قصره ، وكاد يستولي عليه ، لكن الاتفاق السيء عكس الأمر . ويرى السيد المرتضى أن الحسين(ع) لما انعكس الأمر رام الرجوع الى المدينة فمنع منه وطلب الموادعة كما فعل أخوه الحسن فلم يجب ، وطلبت نفسه فمنع منها بجهده حتى مضى كريماً الى جوار جده .

إذن أصحاب هذا التفسير يميلون الى ان الامام الحسين(ع) كان يعتقد ان الأسباب قد تهيأت ، وان الفرصة قد حانت لتغيير الحكم الأموي غير المشروع ، وفي مقدمة هذه الأسباب التفاعل الجماهيري مع الامام الحسين(ع) وورود مئات الكتب المعلنة للبيعة ، بالخصوص من الكوفة ، القاعدة الجماهيرية الواعية التي لا يبلغ وعيها السياسي أية قاعدة من القواعد الجماهيرية ، في البصرة وغيرها من الأمصار الاسلامية ، فضلاً عن تشيعها وولائها لآل بيت رسول الله(ص) . وقد عبّر الامام الحسين(ع) عن ذلك في كتاب له الى أهل الكوفة جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي الى اخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم فإني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا ، فسألت الله ان يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت اليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم ، وجدوا فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمته وبركاته»[٢] . والكتاب كما هو الظاهر يوحي باعتقاد الامام الحسين(ع) ، بانتظام الأمور له ، واستقامتها لصالحه .

وقد عمّق بعض الكتاب المتأخرين هذا التفسير ووجدوا في مسير مسلم بن عقيل بأمر الامام الحسين(ع) الى الكوفة دليلاً واضحاً على هدف الحسين(ع) في إقامة الحكم الاسلامي وقلب الحكم الأموي اللامشروع ، وإلا فماذا يعني أخذ البيعة من أهل الكوفة للحسين(ع) والاستعداد التام لقدومه(ع) عليهم ؟!

ويعتقد أصحاب هذا التفسير بأن أموراً عديدة غيّرت وبدّلت مجرى التخطيط الذي كان قد أعدّه الامام الحسين(ع) والتخطيط الذي أعدّه - أيضاً - سفيره في الكوفة مسلم بن عقيل(رض) ، وقد شكلت عنصراً مفاجئاً رجحت معه الكفة لصالح الحكم الأموي ، حيث استميل وجوه أهل الكوفة وأشرافها ، وتم تعقب الوجوه البارزة من أهل الكوفة المعروفة بالولاء لأهل البيت(ع) ، فيما أشيع جو من الرعب والارهاب استسلمت معه العامة من الناس . كما ويعتقد أصحاب هذا التفسير ان الحسين(ع) لما تبين له الوضع عزم على الرجوع والعودة الى المدينة ، غير أنه منع من ذلك وحيل بينه وبين رغبته في العودة . ويستشهدون بخطبة له(ع) عند لقائه الحر بن يزيد الرياحي جاء فيها : «أيها الناس إنها معذرة الى الله واليكم ، إني لم أتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت عليَّ رسلكم أن أقدم علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني ما اطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لقدومي

كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي جئت منه اليكم ...»[٣] .

الموقف الثاني :

ولعل أبرز مَن مثّل هذا الاتجاه في تفسير الفعل الحسيني هو السيد علي بن طاوس في كتابه «الملهوف على قتلى الطفوف» وحاصله[٤] : ان الحسين(ع) كان عازماً على عدم مبايعة يزيد على كل حال ، ولو أدى ذلك الى قتله ، وكان مقدماً ذلك في حال ظن السلامة ان وجد وفي حال ظن العطب بل تيقنه . قال ابن طاوس : «الذي تحققناه ان الحسين(ع) كان عالماً بما انتهت حاله اليه ، وكان تكليفه ما اعتمد عليه» ثم ذكر بعض الأخبار الدالة على ذلك . ثم قال : «لعل بعض من لا يعرف حقائق شرف السعادة بالشهادة أن الله لا يتعبد بمثل هذه الحالة ، ورده بأن الله تعبد قوماً بقتل أنفسهم فقال : فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم» . وقد عقّب السيد الأمين على ذلك تأييداً لابن طاوس بقوله : «مع انه إذا كان في ذلك من الفوائد مثل إحياء الدين وكشف قبائح المنافقين وردع الناس عن الاقتداء به كان التعبد به أولى من التعبد بقتل النفس عن التوبة ولا يقصر عن التعبد به في الجهاد والقصاص . أما توهم ان ذلك القاء باليد الى التهلكة ففاسد لأن بذل النفس في سبيل الله تعالى للحصول على الحياة الدائمة والنعيم الخالد القاء باليد الى أعظم السعادات .. وأما دعاؤه الناس الى نصرته مثل عبد الله بن الحر الجعفي وغيره وكتابه الى أهل البصرة فكل ذلك من باب إقامة الحجة وقطع المعذرة .»[٥]

وقد استند أنصار هذا الاتجاه في تفسير الثورة الحسينية الى عدة وثائق وبيانات سياسية صدرت عن الامام الحسين(ع) أشارت بوضوح الى انه كان عالماً بعاقبة خروجه ، وانه على موعد مع يوم عظيم . من ذلك : خطبته في المسجد الحرام قبل توجهه الى العراق قال فيها: «الحمد لله وما شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على رسوله ، خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني الى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف ، وخُيّر لي مصرع انا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء ، فيملأن مني اكراشاً جوفا ، وأجربة سغبا ، لا محيص عن يوم خُط بالقلم ، رضا الله رضانا اهل البيت نصبر على بلائه ، ويوفينا أجور الصابرين ، لن تشذ عن رسول الله(ص) لحمته ، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس ، تقربهم عينه ، وينجز بهم وعده ، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته ، موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا ، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[٦] .

ومن ذلك قوله(ع) لأخيه محمد بن الحنفية : «لو دخلت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني»[٧] .

وما رواه جعفر بن سليمان الضبعي أنه قال : «والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة ـ وأشار الى قلبه الشريف ـ من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم[٨] الأمة ..»[٩] .

ومنها رسالته لبني هاشم كتبها عند مغادرته مكة الى العراق جاء فيها : «من الحسين بن علي الى أخيه محمد ، ومن قبله من بني هاشم ، أما بعد : فإنه من لحق بي منكم استشهد ، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام»[١٠] .

وجوابه لأخيه محمد بن الحنفية : اتاني رسول الله(ص) ـ يقصد في المنام ـ بعد ما فارقتك فقال يا حسين اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلا ، فقال محمد : فما معنى حملك هذه النسوة معك ؟ قال : ان الله قد شاء أن يراهن سبايا .[١١] .

ويعضد ما تقدم ما روي[١٢] عن النبي(ص) بإخباره عن مقتل الحسين(ع) وقد روي بألفاظ مختلفة وطرق عديدة نقلها العامة والخاصة كقوله(ص) :

ـ اخبرني جبرئيل ان هذا ـ يعني الحسين ـ يقتل بأرض العراق ..

ـ قال جبرئيل : .. ان امتك ستقتله بأرض يقال لها كربلا ...» .

ـ قال جبرئيل : .. ان امتك ستقتله من بعدك ..

ـ اخبرني جبرئيل : ان ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف ..

ـ ان ابني هذا ـ واشار الى الحسين ـ يقتل بأرض يقال لها كربلاء ، فمن شهد ذلك منكم فلينصره ..

ـ قوله(ص) : ويح كرب وبلا

ـ قوله : «يقتل الحسين بن علي على راس ستين من مهاجرتي» .

ومما حدث به زهير بن القين أصحابه عندما دعاه الحسين(ع) لنصرته قال : «غزونا (بلنجر)* ففتح الله علينا ، وأصبنا غنائم ففرحنا ، وكان معنا سلمان الفارسي ـ فقال لنا : افرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم ؟ فقلنا : نعم ، فقال : إذا أدركتم سيد شباب آل محمد(ص) فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من الغنائم»[١٢] .

وعن عبد الله بن يحيى أو نجي ـ على خلاف ـ عن أبيه انه خرج مع علي الى صفين ، وكان صاحب مطهرته ، فلما حاذوا نينوى ، رفع الامام صوته : «صبراً أبا عبد الله ، صبراً أبا عبد الله ، بشط الفرات ...»[١٣] واخبار اخرى بألفاظ مختلفة .

نظرية الشهيد الصدر[١٤] :

الشهيد الصدر إزاء الموقفين السابقين في تفسير الفعل الحسيني يرى في كلا الاتجاهين إفراطاً وتفريطاً ، لأن الاتجاه الثاني اعتمد التفسير الغيبي المحض بشكل الغى كثيراً من مفردات عظمة ثورة الامام الحسين(ع) ، فيما اضطر أنصار الاتجاه الأول الى اتخاذ موقف تفسيري مناقض تماماً للاتجاه الآخر ، خاصة لدى المتأخرين منهم الذين عمقوه كرد فعل على الطابع الغيبي[١٥] .

ويرى السيد الصدر قدراً كبيراً من الواقعية في كلا الاتجاهين لا يمكن تجاهلها بأي نحو من الأنحاء ، كما يشتملان على قدر من الخطأ ومجانبة الصواب . فمن الواقعية بمكان أن يخرج الامام الحسين(ع) بدافع إقامة الحكم الاسلامي والقضاء على الحكم الأموي الفاسد ، ذلك الدافع الذي كان يجري في عروق الأئمة عليهم السلام ويعيشون همومه ومعاناته . ومن الواقعية ـ ايضاً ـ أن يخرج الامام الحسين(ع) بنيّة الشهادة وبقصد التضحية لإحياء الدين وتعبيد الطريق أمام المسلمين للدفاع عن مقدساته المنتهكة وحرماته المباحة .

أما الخطأ الذي اشتمل عليه كلا الاتجاهين ، فقد تمثل في الاتجاه الأول بالفهم المقلوب للواقع السياسي الذي كانت تعيشه الأمة الاسلامية ، حيث ذهب هذا الاتجاه الى أن الدلائل والقرائن السياسية وفرت للامام الحسين(ع) قناعة كافية في امكانية المجابهة مع الحكم الأموي وتغييره ، وكانت هذه القرائن تشير برجحان وتفوق عناصر القوة لدى الفريق الحسيني ، ولكن أموراً طرأت على الخارطة السياسية شكلت عناصر مفاجأة للامام الحسين(ع) لم يكن اخذها في الحسبان ، كان من شأنها أن أفقدت الحسين(ع) عناصر القوة لدى فريقه ، وانقذت الحكم الأموي من ورطته وضعفه .

السيد الصدر يعتقد أن خلل هذا الاتجاه في تفسير الفعل الحسيني يكمن في مثل هذا الفهم المقلوب للواقع التاريخي ، إذ أن الواقع السياسي حينذاك لم يكن ليوحي للامام الحسين(ع)بالانتصار والغلبة. ومراجعة سريعة للتاريخ في تلك الفترة يلاحظ ان جواً من عدم الثقة كان يساور الجميع في حقيقة الولاء الذي اظهره أهل الكوفة . فقد كتب المسور بن مخرمة الى الحسين(ع) رسالة جاء فيها : «إياك أن تغتر بكتب العراق ، ويقول لك ابن الزبير : الحق بهم فإنهم ناصروك ، إياك أن

تبرح الحرم ، فإنهم ـ أي أهل العراق ـ إن كانت لهم بك حاجة فسيضربون آباط الإبل حتى يوافوك ، فتخرج اليهم في قوة وعدة»[١٦] . ومن ذلك كلام ابن عباس مع الامام الحسين(ع) وقوله : «إني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني أتسير الى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ، فإن كانوا قد فعلوا سر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك وأميرهم عليهم ، قاهر لهم ، وعمالهم تجبي بلادهم ، وتأخذ خراجهم ، فإنما دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك ، ويكذبوك ، ويخذلوك ويبيعوك فيكونوا أشد الناس عليك»[١٧] ومن ذلك قول أبي بكر المخزومي ـ أحد الفقهاء السبعة ـ للحسين(ع) : «ان الرحم يظأرني عليك ولا أدري كيف أنا في النصيحة ؟ كان أبوك أشد بأساً ، والناس له أرجى ، ومنه اسمع ، فسار الى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام ـ وهو أعز منه ـ فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصاً على الدنيا وضناً بها فجرعوه الغيظ ، وخالفوه حتى صار الى ما صار اليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ـ وقد شهدت ذلك كله ورأيته ـ ثم أنت تسير الى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعد منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ....»[١٨] وهي تشير بمجملها الى عدم ظهور دلائل وقرائن توحي بالغلبة والانتصار . ويظهر من كلام للامام الحسين(ع) انه لم يكن على درجة كبيرة من الثقة بأهل الكوفة ، وانه ما كان يعتقد بمناسبة الظروف للمجابهة مع الحكم الأموي واعلان الثورة عليه لإقامة الحكم الاسلامي الأصيل ، فقد خطب الحسين(ع) قائلاً : «...وقد اتتني كتبكم ، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم إنكم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله(ص) ، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم ، ولكم فيّ أسوة ، وإن لم تفعلوا ، ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي ، فلعمري ما هي لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، فالمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم والسلام»[١٩] . وليس في خطاب الامام(ع) ما يوحي بخيبة الأمل وظهور عنصر المفاجأة لغير صالحه ، بقدر ما يوحي بتوقعه(ع) لمثل هذه النتائج وانه كان على معرفة تامة بما سيؤول اليه الأمر من ضعف وخنوع في الأمة الاسلامية ، ولعل في جواب الامام الحسين(ع) على سؤال بعض مشايخ العرب في (بطن العقبة) خير دليل على ما نزعم ، حيث قال للامام الحسين(ع) : «انشدك الله إلا ما انصرفت ، ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف وان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ، ووطؤوا لك الأمور فقدمت على غير حرب كان ذلك رأياً وأما على هذه الحال الذي ترى فلا أرى لك ذلك» ، فقال(ع) : «لا يخفى عليّ شيء مما ذكرت ، ولكني صابر ومحتسب الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً»[٢٠]

ولا يعقل ان جواً مع عدم الثقة والتفاؤل إزاء الولاء المعلن من أهل الكوفة يسود في قطاعات واسعة من المسلمين وخاصة لدى وجوههم وأشرافهم ، فيما يغرق الامام الحسين(ع) في مثل هذه الانطباعات المتفائلة ، في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون أعلمهم بحقائق الأمور .

إن الواقع التاريخي لا يؤكد لنا انطباعاً خاصاً لدى الامام الحسين(ع) تجاه أهل الكوفة يدفعه الى التفاؤل في امكانية الحسم العسكري . وان كان لدى الامام الحسين(ع) مثل هذا الانطباع ، فلا أقل من زواله وهو لمّا يدخل العراق ، ليتسنّى له(ع) الرجوع عن قراره في المسير الى الكوفة ، فقد روي أن الامام(ع) التقى الفرزدق ـ الشاعر المعروف ـ بالصفاح[٢١] ، واستعلمه عن أحوال الناس بالكوفة فأجابه الفرزدق : على الخبير سقطت ،

قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني امية..»[٢٠] .

وفي الوقت الذي يخرج فيه الحسين(ع) الى العراق بداعي الشهادة والتضحية ، فما هي قيمة تبادل السفراء بين الحسين وشيعته ، وما هي قيمة تنظيم البيعة له(ع) وأخذ العهود والمواثيق ؟

ان التضحية لا تساوق الانتحار ، بل هي عبارة عن أعلى درجات الوعي والانضباط ، والانسان ـ وهو يقدم على الشهادة والتضحية بنفسه ـ يضع نصب عينيه هدفاً يروم تحقيقه ، وفي هذا السبيل لا يألو جهداً في تهيئة مقدماته كلها . وشهادة الحسين(ع) إنما تجيء لإحياء الدين الاسلامي وإعادة الثقة الى نفوس المسلمين بقدرتهم على التصحيح واستعادة حقوقهم ، ويأتي تبادل الكتب والسفراء وتنظيم البيعة بمثابة تعبئة الجماهير لخدمة الهدف ـ الحكم الاسلامي الأصيل ـ واعطاء تضحية الامام الحسين(ع) طابعها الرسالي ، وتوظيف هذه التضحية لصالح الرسالة التي ضحى من أجل قيمومتها الامام الحسين(ع) .

وبهذا التفسير يتجاوز الموقف الثاني في تفسير الفعل الحسيني كبوته ، إذ أن مقتل هذا التفسير يعود الى استغراقه في الطابع الغيبي ، الذي ضاع في فنائه عنصر التحريك تجاه الهدف ، ونعني به إقامة الحكم الاسلامي ، والقضاء على الصيغ اللامشروعة والمنحرفة التي سادت في الحياة السياسية للمسلمين .

وحاصل ما يعتقد به الشهيد الصدر : «ان الامام الحسين(ع) كان عالماً ـ حتى بالعلم العرفي لا علم المعصوم ـ انه سيقتل وينال الشهادة ، وان في هذه الشهادة مصلحة للاسلام ، على خلاف الاتجاه الأول الذي يرى بعض رموزه أن المصلحة في حياة الامام(ع) لا شهادته . وإنما خرج لمواجهة الطغيان الأموي بشكل مسلح فلإحداث هزة وجدانية في صفوف المسلمين ، بيد أنه(ع) لا يمكنه ان يُعنون ثورته بعنوان الشهادة ، لأن هذا العنوان سيفقد أثرها في تهييج عناصر الثورة في عروق المسلمين ، وذلك لغلبة طابع الانتحار والقاء النفس في التهلكة . ولذلك عنون الامام الحسين(ع) ثورته وعمله الاستشهادي بعنوان آخر وهو هدف إقامة الحكم الاسلامي . وبذلك يلغي الشهيد الصدر مظاهر التعارض في النصوص التاريخية التي يصرح في بعضها الامام(ع) بعلمه بشهادته ، وفي بعضها الآخر بطلب إقامة الحكم الاسلامي»[٢٢] .

وبذلك وضع الشهيد الصدر اليد على الحلقة المفقودة في كل من الاتجاهين ، فأضاف الى الاتجاه الغيبي عنصر الهدفية في عملية الاستشهاد لئلا تظهر بمظهر الانتحار ، واضاف الى الاتجاه الآخر إمكان تعقل المصلحة في الاستشهاد الذي رفضه هذا الاتجاه ، وذلك في إحداث الهزة الوجدانية في نفوس المسلمين وإثارة المشاعر الثورية فيهم[٢٤] .

فالشهيد الصدر يعتقد أن الامام الحسين(ع) كان يهدف الى خلق حالة يهز بها مشاعر المسلمين ويضعهم أمام مسؤولياتهم تجاه دينهم وكرامتهم ، ويغلق عليهم منافذ الهروب واللامبالاة تجاه المشاكل السياسية . وحالة كهذه من التثاقل والانهزامية وفقدان الارادة تفتقر الى عمل جبّار ينتشل الأمة من مأزقها الخطير وينقذها من كابوسها المرعب ، وليس ثمة ما يوازي التضحية والاستشهاد في إنقاذ الأمة وتحطيم قيودها واغلالها . فالأمة مبتلاة بمرض يسميه الشهيد الصدر مرض فقدان الارادة ، والتضحية وحدها القادرة على إعادة الثقة الى المسلمين بقوة إرادتهم وتفجير هذه الارادة لصالح الرسالة الاسلامية .

والتضحية تأتي لصالح الرسالة الاسلامية ، وليس ثمة اولى بالاستنقاذ من الإمامة ـ أي الحكم الاسلامي ـ لأن تفجير الارادة لدى المسلمين وإعادة الثقة الى نفوسهم يجيء لاستنهاضهم لتقويم أوضاعهم الفاسدة

وتصحيح المسيرة والقضاء على مظاهر الانحراف ، ولذلك عنون الامام الحسين(ع) ثورته بإقامة الحكم الاسلامي الأصيل وقلب الحكم الأموي وإعادة الأمور الى نصابها وتصفية المظاهر اللاشرعية التي ورثتها الأمة الاسلامية في حياتها السياسية . ولأن كانت ثورة الحسين(ع) مع قلة الناصر غير قادرة في بداية انطلاقها على تحطيم الحكم الأموي فلا اقل من انها ستحطم جدار الخوف والرعب وتمزق كل حجاب يحول دون ان تستعيد الأمة عافيتها ، والتعبير عن هذه العافية التي من ابرز صورها قدرتها على تقويم حياتها السياسية وتصفية مظاهر الفساد فيها ، وهو ما حققته ثورة الحسين(ع) ولا زالت الى يومنا هذا ، بل لن تستنفد اغراضها الى آخر يوم من حياة البشرية .

٢ ـ الظاهرة الحسنية والظاهرة الحسينية :

ومثلما اختلف العلماء والمفكرون في تفسير الفعل الحسيني ، والهدف الحقيقي وراء تضحيته وإقدامه على الشهادة ، اختلفوا في تفسير التعارض الظاهري بين الموقف الحسيني والموقف الحسني . ولعل عمدة الآراء في هذا المجال ترجع ـ فيما اظن ـ الى ثلاثة مواقف .

الاول : وهو يعمد الى تعليل صلح الامام الحسن(ع) على اساس عصمته ، وانه لا يفعل إلا ما فيه الخير والصلاح لجميع الأمة . وفي مقدمة من اختار هذا الموقف السيد المرتضى والسيد ابن طاووس . فقد ذكر السيد المرتضى في كتابه «تنزيه الأنبياء» : «انه ـ يعني الحسن ـ قد ثبت انه المعصوم المؤيد بالحجج الظاهرة ، والأدلة القاهرة ، فلا بد من التسليم لجميع أفعاله وان كان فيها ما لا يعرف وجهه على التفصيل أو كان له ظاهر نفرت منه النفوس»[٢٤] . ولا يعدو السيد علي بن طاووس هذا التعليل إلا انه حاول تفسير صلح الامام الحسن(ع) بعيداً عن عالم الغيب ، فعلله ببلاء الامام الحسن(ع) ومحنته بمجتمعه الفاسد[٢٥] .

ويبدو ان السيد المرتضى الذي اختار تفسيراً حسياً للثورة الحسينية ، ينزع في تفسير صلح الامام الحسن(ع) الى التفسير الغيبي ، فيما ينزع السيد ابن طاووس الذي اختار التفسير الغيبي في ثورة الحسين الى التفسير الحسي في صلح الامام الحسن(ع) مع التسليم بالجانب الغيبي المجهول .

الثاني : وهو موقف يعمد ـ بعد التسليم بعصمة الامام الحسن ـ الى سبر اعماق الحقيقة ومحاولة التعرف عليها ، ويقوم على الايمان بانتكاس الحياة الاسلامية وإقصاء الرسالة الاسلامية من حياة الناس كما يقوم على استبعاد المصلحة في لجوئه(ع) الى التضحية والاستشهاد . ولعل أبرز من يمثل هذا الموقف الامام عبد الحسين شرف الدين حيث يقول : «..نعم لك أن تقول كان على الحسن أن يستشهد فيموت عزيزاً ، ولكن أعد النظر في تاريخ هذه الفترة لترى ان الاستشهاد فيها ينمسخ الى معنى من معاني (الخروج) فلم تكن يومئذ حقيقة وطنية ثابتة ، ولا روح مبدئية مستقرة لتكون التضحية تضحية مقررة القواعد . وليس أتفه ـ في هذه الحال ـ من الموت يعين على صاحبه ويميته مرة اخرى في معناه»[٢٦] .

فالشهادة ـ كما يعتقد السيد شرف الدين ـ ليست ذات معنى ولا فائدة كي يقدم الامام الحسن(ع) الى مثل هذا الخيار في حسم الخلاف مع الحكم الأموي آنذاك . وفي هذا الموقف يكون السيد شرف الدين أقرب الى تفسير الصلح والموقف الحسني ، لأن مفروض السؤال لدى الباحثين هو : لماذا لم يقدم الامام الحسن(ع) على الخيار الثوري كما اقدم عليه الامام الحسين(ع) ؟

الموقف الثالث : ويذهب الى أن لجوء الامام الحسن(ع) الى الخيار السلمي كان بقصد إزاحة الحجب عن حقيقة الحكم الأموي

المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان .

يقول الامام محمد حسين كاشف الغطاء : «..إنَّ ما فعله سلام الله عليه هو المتعين ولا يصح غيره ، نعم هو الحزم بعينه وهو الظفر بخصمه وهو عين الفتك بعدوه من حيث الفنون الحربية والسياسية الزمنية ، فعل فِعْلَ القائد المحنك والحازم المجرب ، فحارب عدوه بالسلم وغلب عليه بالصلح ، فأخمد ناره وهتك استاره وأبدى للناس عاره وعياره ، وما كان من الصلاح إلا أن يحاربه بالصلح لا بالسلاح ويذبحه بأعماله لا بقتاله ونباله ..»[٢٨] وقريب منه قول الامام شرف الدين : «ولو لم يكن موقف الحسن هذا لأتيح لمعاوية سلطان لا يعرف الناس منطوياته ، ولما أتيح للحسين أن يكون الفداء الخالد للمبدا الخالد[٢٩]» . كما اختاره الشيخ باقر شريف القرشي حيث يقول : «كان معاوية قبل أن يستولي على زمام الحكم ملتزماً بتعاليم الاسلام ظاهراً ، ويظهر الاهتمام بشؤون المسلمين ، ولكن كان ذلك ـ من دون شك ـ رياء منه ومكيدة من باب المشيء رويداً لأخذ الصيد . كان يبطن الكفر والنفاق ، ويضمر السوء والعداء للمسلمين ، فأراد الامام الحسن(ع) بصلحه أن يبرز حقيقته ، ويظهر للناس عاره وعياره ، ويعرفه للذين خدعهم بمظاهره من أنه أعدى عدو للاسلام ، فأخلى له الميدان ، وسلَّم له الأمر ، فإذا بكسرى العرب ـ كما يقولون ـ تتفجر سياسته الجهنمية بكل ما خالف كتاب الله ، وسنة رسول الله(ص) ، وإذا به يعمد الى فصم عرى الاسلام والى نسف طاقاته...»[٣٠] .

ان هذا الاتجاه يعلل صلح الامام الحسن(ع) بقصده تعرية الحكم الأموي ـ معاوية يومذاك ـ وحقيقته للمسلمين ، ولكنه لا يفسر لنا لماذا اضطر الامام الحسن(ع) الى تعرية هذا الحكم وكشف حقيقته .

الشهيد الصدر في نظريته لتفسير الفعل الحسيني وشرح حقيقة الموقف الحسني يكشف عن الدوافع الحقيقية التي اضطرت الامام الحسن(ع) الى الصلح فيما اضطرت الحسين الى الخيار الثوري . وفي تحليل هذين الموقفين يرى السيد الصدر ان واقع الأمة في زمن الامام الحسن(ع) كان يبتلي بمرض الشك، وان مجتمعه كان لا يميز بين الامام الحسن وخصمه ، ويرى في المعركة التي بينهما غلبة الطابع الشخصي والمنافع الشخصية ، ولذلك ليس بالامكان ان يقوم الامام الحسن بعمل مسلح لانه سيصادر من قبل الجمهور باعتباره معركة شخصية لا نصيب للاسلام فيها ، ببينما كان موقف الامام الحسين ثورياً مسلحاً ، لأن الأمة في زمنه ـ بعد أن عرى أخوه الحسن النفعية في خصمه ـ لم تعد مبتلاة بمرض الشك ، وإنما ابتلت بمرض آخر هو مرض الخنوع وضمور الشجاعة والاقدام ، ولم يكن امام الحسين(ع) سوى اختيار التضحية لتفجير مواطن القوة والشجاعة والاقدام في النفوس واثارة المشاعر الثورية لدى المسلمين[٣١] .

هل يُعقل أن يشك المسلمون بسيد شباب أهل الجنة وسبط رسول الله(ص) ، وهل يستوي الحسن ومعاوية في مقام واحد ؟

يعتقد السيد الصدر ان هذا الشك متوقع لأن المسلمين ـ خلا النخبة الواعية ـ لم يكونوا على درجة كبيرة من الوعي تمكنهم من الثبات في وجه الشبهات وتجنبهم من الانزلاق مع تياراتها ، والمسلمون حتى في زمن النبي محمد(ص) لم يعيشوا مثل هذا الوعي ، فالذي «يقرأ التاريخ ، تاريخ هؤلاء الناس الذين عاشوا مع النبي(ص) تبهره انوارهم في المجال الروحي والفكري والنفسي في مجال الجهاد والتضحية في سبيل العقيدة . ولكن هذه الأنوار التي تظهر للمطالع لم تكن نتيجة وضع معمّق تعيشه الأمة في أبعادها الفكرية والنفسية ، بل كانت نتيجة طاقة حرارية هائلة اكتسبتها هذه الأمة باشعاع النبي(ص)»[٣٢] . ولن تكون الطاقة النفسية والروحية قادرة على مواجهة التحديات الكبيرة كما هو شأن الوعي

في استجابته لها واستيعابها بثبات وانضباط دون ان تقهره وتعجزه .

ان المسلمين مع التحول الفكري والانقلاب الاجتماعي الهائل لم يودّعوا موروثاتهم وعشر سنوات في ظل دولة الاسلام ليست كافية لطوي سجل العهد البائد ، فضلاً عن دخول القسم الأعظم من العرب في الاسلام قبل سنتين فقط من وفاة النبي(ص) . وفي ظل غياب الوعي الكامل بالرسالة ورجالها ـ مع تعثر المسيرة واضطرابها ـ لا يستبعد شيوع مثل هذه الأمراض في المجتمع الاسلامي والأمة الاسلامية .

ويعتقد الشهيد الصدر ان شيوع مرض الشك قد تم على عهد أمير المؤمنين علي(ع) أواخر حكمه . وكان الامام علي(ع) قد اثبت انطباعاً عميقاً لدى المسلمين بتآمر معاوية على الخلافة الراشدة وأعطى لخصومته مع معاوية طابعاً رسالياً، وأن المعركة بينهما هي معركة بين فكرين وهدفين ، وليست بين زعامتين وشخصيتين ، إلا أن الأمر تطور الى الأسوأ حيث أن المسلمين بدأوا يشكون شكاً واسع النطاق في حقيقة هذه المعركة . وكانت ثمة عوامل موضوعية وذاتية ساعدت على خلق هذا الشعور ، فمع غياب الوعي لدى معظم المسلمين ، تظهر عوامل موضوعية خلقتها الظروف هيأت لخصوم علي(ع) أن يكونوا أنداداً له ، ولعلّ في مقدمتها أن ذلك الامتياز الخاص الذي كان يتمتع به امير المؤمنين في عهد الرسول(ص) كالنجم لا يطاول ، ذلك الامتياز الخاص كان قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين ، لأنهم عاشوا عشرين سنة يرونه مأموماً وجندياً[٢٢] ، مع تغييب مقصود لدوره هو والنخبة الواعية من المؤمنين الواثقين به وحجبهم عن الاتصال مع القواعد الجماهيرية التي لم تعرف ولم تتعرف على علي(ع) لقرب عهدها بالاسلام ، في الوقت الذي تبرز فيه وجوه طارئة على الاسلام ، ويضفي عليها طابع قدسي خاص تعمل لمصلحة غير علي(ع) . فالظروف الموضوعية هي التي أوجدت لمعاوية مركزاً قوياً ، ظهر فيه نداً لعلي(ع) ، وإذا كان ليس من المعقول اليوم ان نقارن بين علي(ع) وبين معاوية ، يقول الشهيد الصدر : يجب أن نعرف ان مفهوم المسلمين عن معاوية يومذاك ، كان يوم لم يظهر على حقيقته للمسلمين ـ خلا النخبة الواعية ـ ولم تتكشف أوراقه. كان معاوية شخصاً قد مارس عمله الاداري والسياسي بعد وفاة رسول الله(ص) بأقل من سنة ، خرج الى المدينة وذهب الى الشام كعامل عليها ، وبقي معاوية هناك معززاً من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ، حتى ان عمر بن الخطاب ، حينما اراد ان يؤدب ولاته استثنى معاوية وحينما أراد ان يقاسم أموال ولاته استثنى معاوية من ذلك . فمعاوية كان والياً موثوقاً به معززاً من الناحية الاسلامية عند ابن الخطاب . ووسع عثمان بن عفان من نطاق ولايته . فهو لم يكن شخصاً مكشوفاً بل شخصاً عنوانه الاجتماعي انه حريص على كرامة الاسلام وكان يتمتع بسمعة طيبة وبمفهوم طيب[٢١] لدى قطاع واسع من المسلمين ممن عاش الاسلام بعيداً عن مدرسة أهل البيت(ع) وفي ظل أجواء الحجر السياسي والاجتماعي الذي حجب أنوارهم عن قطاعات واسعة من الأمة الاسلامية .

وفضلاً عن ذلك فإن عاملاً ذاتياً ساعد على إشاعة الشك لدى المسلمين ، وهو الايحاء النفسي الذي خلقته الظروف الصعبة التي مرّ بها المسلمون ، تلك الظروف التي فصلت الأمة عن امامها ، لأنها عجزت عن التفاعل معه ومع طموحاته وآماله ، فأخذت تفتش عن ذرائع تركن اليها ، لتسوّغ إحجامها عن أداء مسؤولياتها ، فتجد من مصلحتها ان تشك في أهداف إمامها وفي طموحاته ، وهو ما دعا الامام علي(ع) الى ان يبكي على المنبر ناعياً أصحابه من قبيل عمار بن ياسر وأمثاله[٢٣] .

والامام الحسن بن علي(ع) جاء الى الخلافة بعد شهادة أبيه(ع) في فترة شاع فيها مرض

للشك واللامبالاة تجاه القضايا المصيرية ، فوجد في المسلمين ـ من كان تحت إمرته ـ أذناً صغواء لخصمه ، ولم يكن بمقدوره سوى أن يكشف حقيقة خصمه ويقوم بتعريته ليدخل الانحراف الى بيوتهم ويمس عن قرب جلودهم ليشعروا بعمق المأساة وخطورة الموقف ، فدفعت الأمة الاسلامية ثمناً باهظاً لتخلفها عن حمل مسؤولياتها والنهوض بها . وأمة لا تعبأ بتضحية المخلصين لا تستحق التضحية ، ولا أظن ان عاقلاً يقدم على التضحية في وقت لا تتفاعل معه جماهيره ومع أهدافه . ولم يقدم الامام الحسن(ع) على تضحية كهذه إيماناً بهذه الحقيقة ، وشعوراً منه بعدم تعاطف الأمة مع تضحيته ، وحينئذ لا تأتي هذه التضحية رصيداً كبيراً في دفع عجلة التغيير التي يطمح اليها الحسن(ع) ، ولم يبق أمامه سوى تجريد خصمه من سلاحه ، وكشف محتوى المحاولات الاستعراضية ومضمون الشعارات الزائفة التي يلجأ اليها خصمه على نطاق واسع لتضليل عقول الناس واستدرار عواطفهم. ويعتقد الشهيد الصدر ان الامام علي(ع) هو نفسه لجأ الى هذه الطريقة في بعض مراحل حياته السياسية ، وهي طريقة في العمل السياسي يبررها شيوع حالة اللامبالاة لدى المسلمين إزاء مظاهر الانحراف وتعصّي محاولات اقناعهم بخطورة الموقف ، فيلجأ الامام الى أن يأخذ الانحراف مداه في حياتهم ليحاصرهم في كل شؤونهم ، فيشعرون به ويذوقون مرارته[٣٦] .

اما تضحية الامام الحسين(ع) فقد جاءت في وقت تتطلع فيه الأمة الى عمل يهز وجدانها ويعبيء طاقاتها ، لأن هذه الأمة لم تعد تشك في واقعها بعد أن تبددت سحب الجهل وزالت عوارضه . فها هي الأمة تحصد ما زرعت ، وتدفع ثمن اخطائها الاستراتيجية التي كلفتها مزيداً من الخسارة والفشل ، ولم يعد معاوية نداً لعلي(ع) ولولده الحسن(ع) من بعده ، ولم يعد ثمة ما يخفى على الأمة من مظاهر الانحراف وألوانه التي دخلت كل بيت وذاق طعمها كل مسلم نزيه مخلص .

ولعل في رد الامام الحسين(ع) على معاوية حين أراد البيعة ليزيد ما يكفي لإلقاء الأضواء على حقيقة الأمة الاسلامية يومئذ وطبيعة تلك المرحلة ، قال(ع) : «..وهيهات هيهات يامعاوية فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى افرطت واستأثرت حتى أجحفت ، ومنعت حتى بخلت ، وجرت حتى جاوزت ، ما بذلت لذي حق من اسم حقه من نصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل . وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد تريد ان توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً او تنعت غائباً او تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش والحمام السبق لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً ودع عنك ما تحاول..»[٣٧] ويشهد على هذه الحقيقة ـ أعني وعي الناس بطبيعة الحكم الأموي ـ الخطاب السياسي الذي شاع في أوساط المسلمين المشحون بلغة التبرم من حكم الأمويين وظلمهم وانحرافهم ، ذلك الانحراف الذي لم يعد خافياً على الحصيف وغيره . ولكن حالة من الوعي كهذه لم تجند المسلمين لخوض غمار المواجهة ، واعلان الحرب على الحكم الأموي الجائر ، لندرة عنصر الجرأة والشجاعة والاقدام في صفوف المسلمين ، وضعف الارادة وشيخوختها ، فكان العلاج الناجع الذي ينتشل المسلمين من مستنقع الذل والخنوع ، ويحطم قيود الهوان ، هو ان يفتح الامام الحسين(ع) باب التضحية على مصراعيه لينزع فتيل الثورة ويلهب الحماس لدى المسلمين ، كما يبطل الحجج والذرائع المثبطة . وتضحية في جو من الترقب والانتظار قمينة بالاكبار والاعجاب من المسلمين ،و قادرة